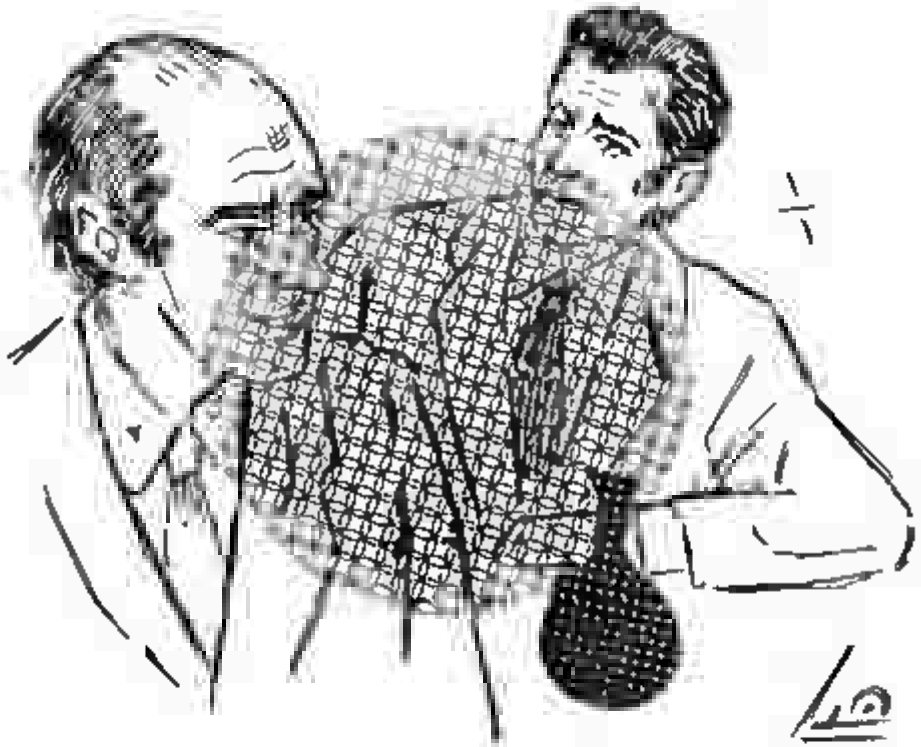

# سر الحياة

تأليف : ريتشارد جرانيت

ترجمة : صبحى الجيار

كان الفيلسوف المجوز « أبوبيل » يعيش فى قلعة عالية فى مدينة « بالح » ، حيث كرس نفسه لدراسة الكيمياء والعلوم الغامضة ... ولم يكن يدعو أحدا الى معمله . ولا يعنى هذا انه كان يحب الآدميين تماما ، بل على العكس ، فقد كان له سبعة تلاميذ من الشبان الذين ينتمون الى انبل العائلات فى المدينة ، كان يزودهم ـ فى أوقات معينة ـ بالفلسفة وكل المعلومات القانونية المشروعة ، محتفظا لنفسه بالعلوم والحكمة غير المباحة ، وهى التى تتعلق بالسحر والكيمياء الخرافية التى تبحث فى تحويل المعادن الى ذهب .

وذات يوم استدعى تلاميذه السبعة الى صومعته السرية فدلفوا اليها فى

رهبة وفضول . لكنهم لم يلحظوا شيئا بل راوا استاذهم الحكيم واقفا خلف منضدة ، كان فوقها سبع قارورات بلورية ، مملوءة بسائل صاف شفاف كالماء .

وبدأ الحكيم يتكلم :

ـ انتم تعلمون يا اصدقائي كم اكافح واجاهد بحماس لاكتشف اسرار الطبيعة الغامضة ، وكي احل المعضلات التي اعيت وحيرت العلماء على مر العصور لقد كانت هذه المسالة هي هدفي دائما . ولكني ـ حتى امس ـ لم يكن حظي بافضل من هؤلاء الذين سبقوني . ان القدر الضئيل الذي امكني انجازه يبدو تافها اذا قورن بالقدر الذي اضطررت الى تركه غير كامل . وحتى الآن يعتبر نجاحي ضئيلا ، فانا لم استطع ان اعرف كيف اصنع الذهب . وليست لي حكمة سليمان ، ولا استطيع ان اعيد جوهر الحياة الى الموتى ، ولا انفث الحياة في الجماد . ولكني اذا لم اكن اقدر ان اخلق الحياة فان في استطاعتي ان احافظ عليها وانقيها ، فقد اكتشفت اكسير الحياة .

صمت الحكيم لحظة ليختبر ملامح تلاميذه ، فالفاها مكتسية بدهشة بالغة ، بل امل وايمان لاشك فيه بصحة ما قاله استاذهم . وقد اشرقت عيونهم بومض من امل مجهول في انهم قد يشاركونه في هذا الاكتشاف العظيم الذي صارحهم به . وعندما ادرك الحكيم مشاعرهم هذه ، استطرد يقول :

ـ اني ارغب في اطلاعكم على هذا السر اذا شئتم .

فانطلقت منهم صيحة حماسة ، اكدت له ان لا داعي لتشككه في رغبتهم . وعاد يقول :

ـ ولكن تذكروا .. ان هذه المعلومات ـ كاي معلومات اخرى ـ لها مصارها وعواقبها .. ان لكل شيء ثمن .. وعندما اتتم ها لتتلقوا هذا العلم فمن المحتمل انه تبدى لكم حتم الصعوبة .. واود ان تفهموا ان الشروط التي سأعرضها عليكم ليست من عندي . ان هذا السر لقد اتى الي من طريق الارواح .. ولم اصل اليه عن طريق المنحة .. بل حصلت على هذا السر تحت شروط حاسمة اضطررت ان امتثل اليها . واحب ان تفهموا ايضا انه لا يعنيني ان استخدم هذه المعلومات لمصلحتي الخاصة .. فان السنوات الثمانين التي قطعتها من عمري قد جعلتني اكثر حرصا والتماسا لهذه الوسائل التي تختصر الحياة اكثر مما تطيلها . وقد يكون من المفيد لكم اذا استطاعت خبرة السنوات العشرين من عمركم ان تؤدي بكم الى نفس النتيجة .

لم يبد اي اعتراض على احد من التلاميذ ، بل اسرعوا بالموافقة في حماس ، مدفوعين بما يكتنف حياتهم من فراغ وعرور ، وتذمر . وكذلك من اجل مبادىء معلمهم المبجل ، الذي كان راضيا عن تصرفاتهم وطباعهم ، الا انه كان محتاجا لمن يقنعه بالهوة السحيقة بين النظرية وتطبيقها ، وبضعف الاقناع المتأتي بجانب المرونة العقلية .

وفي صوت واحد اكدوا جميعا استعدادهم لتحمل اي مخاطرة معقولة ،

وتطوعوا لاجراء اية تجربة ، راضين بهذا الشرط الذى يؤهلهم للاشتراك فى السر العظيم الذى اكتشفه استاذهم .

وعاد الحكيم يقول :

ـ وهو كذلك .. والآن انصتوا الى الشروط .. على كل منكم أن يختار احدى هذه القوارير السبعة بطريقة عشوائية .. ثم يتجرعها فى الحال . ان واحدة منها فقط تحتوى اكسير الحياة .. أما القوارير الاخرى فتختلف محتوياتها تماما عن قارورة الاكسير .. انها تحوى ستة انواع من السم المميت .. وهى اقوى سموم استطاعت مهارتى أن تمكننى من تحضيرها .. ولم يعرف العلم حتى الآن ترياقا لهذه السموم . فالنوع الاول يلسع الاحشاء كجمرة من نار . والثانى يشل حركته تجميد جميع أوعيتها الدموية .. ويشل كل اعضائها .. والسم الثالث يقضى على الانسان بانتفاضات مجنونة مهلكة .. اما الرابع فان من يتجرعه سيكون اسعد حالا نسبيا .. لانه سيسقط على الارض فى الحال فاقد الحياة .. كأن البرق قد صعقه .. لكنى لا اشفق كثيرا على الخامس الذى سيقضى عيونة على الفور .. ثم يقضى نحبه فى غمرة حالية من الالم . ولكن ما انعس الذى سيختار القارورة السادسة فان شعره سيسقط عن رأسه .. وينفصل جلده عن جسده .. ويظل طويلا على قيد الحياة يعانى من عذاب مبرح .. ينتهى معه الموت . أما القارورة السابعة . فهى التى تحوى هدفكم المنشود ..

ثم صاح فيهم :

ـ مدوا ايديكم نحو المائدة فى آن واحد .. وليقبض كل منكم على احدى القوارير دون تردد .. ثم يتجرعها فى جرأة وشجاعة . ودعوا القدر يختار لكم ، وسوف تحدد النسبة قدر ما لكل منكم من حظ ..

تشاور التلاميذ السبعة معا ، والذهول مخيم على وجوههم ، ثم اتجهوا جميعا شاخصين نحو استاذهم ، آملين أن يكتشفوا شيئا من علامات المزاح على ملامحه الوقورة ، ولكنهم لم يروا على محياه غير مهابة ورزانة ،

او ربما كان يومض من خلفهـــا تعبير صارم ساحر .

واخيرا راحوا يمعنون النظـــر فى القوارير ، آملين ان يلمحـــوا فيها اى اختلاف مثـــل قد يساعدهم فى تمييز الاكسير عن السموم ، ولكن حاب طلبهم ، فقد كانت القوارير متشابهة تماما فى مظهرها الخارجى ، وكانت محتويات كل منها مساوية فى شفافيتها ولونهـــا المعدوم .

وبعد فترة قال « ابو سل » فى دهشة لم يعرفوا ان كانت حقيقية او مفتعلة :

ـ ماذا تنتظرون ؟ .. كنت احسبنى سارى سنة منكم يعانون سكرات الموت ...

لم تكن كلماته لتشجع السبعة المرتجفين . ثم تقدم منهم الثانى ، هما اكثرهم شجاعة ، ومد يديهما الى منتصف الطريق نحو المقعدة . ولكنهما عندما ادركا ان الآخرين لم يقتدوا بهما ، عادا مسحبا يديهمـــا فى شىء من الارتباك .

واخيرا هتف احدهم محطما الصمت الحائر :

ـ لا تظن انهـــا المعلم العظيم اننى شخصيا احرص على حياتى التافهة .. ولكنى ارعى امى العجوز .. التى ترتبط حياتها بحياتى ...

وقال الثانى :

ـ وانا لى اخت غير متزوجة يجب على ان اعولها .

وقال الثالث :

ـ انا لى صديق حميم اخشى عليه الدمار .. وليس من الحكمة ان اتخلى عنه ...

وقال الرابع :

ـ اما انا فلى عـــدو وأود ان انتقم منه ....

وقال الخامس :

ـ لقد وهبت حياتى كلها للعلم .. فهل ارضى بتركها قبل ان تشمل انجازاتى البحار السبعة ؟

وتساءل السادس :

ـ وهل ارضى انا بترك الحياة قبل ان اتحدث الى الانسان الذى يعيش على سطح القمر ؟

واخيرا قال السابع :

ـ اما انا فليست لى ام او اخت .. وليس لى اصدقاء ولا اعداء .. كذلك حماسى للعلم لا يوازى حماس زملائى .. ولكنى احترم جدى واعز به كثيرا ... .

فقال الحكيم محملا قوله :

ـ اذن فالنصيحة الهامة انه لا احد منكم سيوف يخاطر فى سبيل كاس الخلود ؟

ظل الشبان صامتين فى خجل وارتباك ، عارفين عن تلقى كلمات التقريع من استاذهم ، وهاجرين عن تبرير مسلكهم . كانوا يبتدون حلا وسطا لهذه المعضلة ، ولكن الحل ظل تائها فى الظهور . واخيرا قال احدهم :

ـ قد يكون من الاوفق الا نجرع القوارير دفعة واحدة ، بل يجرع كل منا قنينته على انفراد ، وليعمل القدر بنا ما يشاء ... .

فاجاب « أوتيل » :

ـ ليس لى اعتراض على هذا الاقتراح .. فقط تذكروا ان افضل محاولة لمخالفة الشروط هو ترجيح الغرصة لاى فرد منكم .. سوف تفنى فشلكم جميعا .. .

واقترحوا اجراء قرعة ، فاسرع التلاميذ وتناولوا سبع انصبات صغيرة متساوية فى الطول ، وشرعوا يمضونها بالطريقة المعتادة ، فاستقرت أقصر العصى فى يد احدهم ، وهو الذى يتدرع بواجبه النبوى نحو امه ، فتقدم نحو المنصة فى كثير من العزم والتصميم ، وامتدت يده الى منتصف الطريق دون تردد ، ثم التفت الى زميله الذى يمسك بالعصا التالية فى الطول ، وكان هو الذى يقيم مع أخيه ، وقال بسرعة :

ـ ان العلاقة بين الام وابنها أقوى واقدس من الصلة بين الاخوة .. اليس من الواجب اذن ان تواجه انت هذه المجازفة بدلا منى ؟

فاجاب الشاب المعنى بالحديث فى ارتباك :

ـ ان العلاقة بين الام المحور وابنها البالغ ، ولو انها اكثر قداسة ، لا يمكن ان تكون دائمة ، اذا ما ادركنا انهما ستنفصم عراها بالموت ، بينما العلاقة بين الاخ واخته قد تدوم الى سنوات طويلة اذا شاءت ارادة الله .. لهذا يجب ان تجازف انت اولا بهذه التجربة .. .

فصاح المتحدث الاول فى سخط :

ـ هل وصلت بى الحال لان اسمع مثل هذه السفسطة من تلميذ للحكيم « أوتيل » ؟ .. ان علاقة الام بابنها ... .

فصاح السادس مقاطعا :

ـ لنوقف هذه التفاهات لحظة .. فاما ان تحقد الشروط او تنحنى عن هذه المهمة ... .

تحمس التلميذ لهذا الاستحثال ، فمد يده الى المنصة وامسك باحدى القوارير ، وما كاد يلمسها حتى خيل اليه انه اكتشف شيئا من الاختلاف فى لون السائل مما تشاءم له ، وتوهم انه يفكر صفو شفافيته فميزه عن باقى القوارير ، فاسرع بعيده الى المنصة . وامسك بالقارورة التالية .. وفى تلك اللحظة انفجر وهج من الضوء امامهم ، فسقط التلاميذ السبعة مصعوقين ، وتمددوا على الارض فاقدى الوعى .

وعندما استعادوا قواهم ، وجدوا انفسهم خارج مسكن الحكيم «أوتيل» ، متأثرين بالصدمة والاهانة التى لحقت بهم لما اقترفت ايديهم ، ثم تعاهدوا جميعا على الاحتفاظ بسرهم ، وعادوا الى بيوتهم .

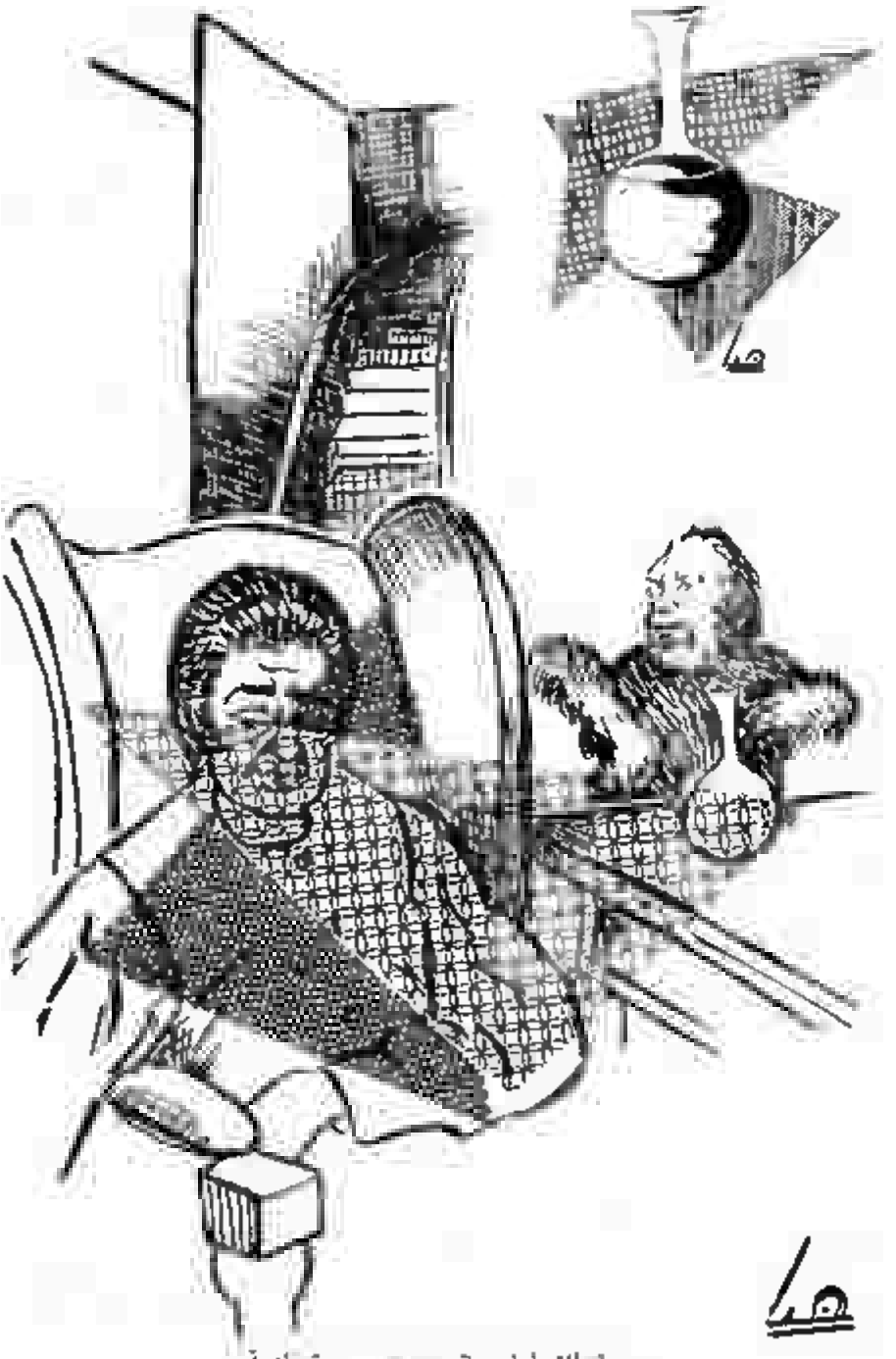

■ انطلق امامهم قرد ضخم بعروة ناعمة ■